المحاضرة الأولى: (قضية اللفظ والمعنى)

تمهيد:

تعتبر قضية اللفظ والمعنى من القضايا الهامة التي اختلف فيها النقاد العرب القدامى، فاختلفت رؤاهم حولها وانقسمت إلى ثلاثة أراء هامة: رأي يقدم المعنى على اللفظ، ورأي ثان ينتصر للفظ على المعنى، ورأي ثالث يحاول أن يوفق بينهما. والحق أن هذا الانقسام سببه الاختلاف في أيهما أولى بالاهتمام اللفظ أو المعنى مع ضرورة حضور الطرف الثاني في المعادلة، فأنصار المعنى وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني. ما وقفوا هذا الموقف إلا لأنهم يرون أن الألفاظ تتبع ترتيب المعنى في النفس[1]، بمعنى أن التجربة الشعرية حين تكون صادقة فإن معانيها تكون مرتبة على المستوى النفسي بلا افتعال ومن ثم فهي ستصحب ألفاظها المعبرة عنها بكل دقة وصدق، وهو ما يقال أيضا في شأن المناصرين للفظ، أنهم لم يهملوا المعنى ومنهم الجاحظ ، في قوله المشهور أن «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير».[2]

المعاني في رأي أصحاب هذا الاتجاه يعرفها كل بني الإنسان وحضورها القوي والصادق المرتب على المستوى النفسي للمبدع أمر لا جدال فيه، ومن ثم فإن الاعتناء بالألفاظ المعبرة عن تلك المعاني أجمل تعبير يشكل الأولوية لأصحاب هذا الرأي، وعليه فإن الاهتمام أحد طرفي المعادلة الإبداعية، الألفاظ أو المعاني لا يسقط الطرف الآخر بأي حال من الأحوال، وهذا لا عبر عنه ابن الأثير في قوله: «فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها، ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك هي بالألفاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني، ونظير ذلك إبراز صورة الحسناء في الحلل الموشية والأثواب

المحبرة، فإنا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه».[3] أو كما عبر ابن رشيق عن طرفي هذه المعادلة بقوله: «اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الجسم بالروح».[4]

وبناء على ما سبق، فإن النقاد العرب القدامى لم يختلفوا في التأكيد على مجموعة من المقاييس التي يجب أن تتوفر في اللفظ والمعنى، وهي كما يلي:

مقاييس اللفظ:

---

[1] - ينظر عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، مطبعة الفجالة، القاهرة، ط2، 1976 ص 40-43.

[2] - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح عبد السلام هارون،القاهرة، ط2، 1965، ص 131-132.

[3] - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: بدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1962، ص 65-66.

[4] - ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، مطبعة أمين هندية، القاهرة، ج1، 1974، ص 124.

محاضرات في مقياس النقد الأدبي القديم(السداسي الثاني)

المستوى: السنة الأولى ليسانس مج 3 **أ.قلايلية**

اشترط النقاد العرب القدامى جملة من المعايير الفنية التي يجب أن تتوفر في اللفظ حتى يعتد بفصاحته، وقد قسموا تلك الشروط إلى قسمين، منها ما يتعلق باللفظة الواحدة على انفرادها، ومنها ما يتحقق في الألفاظ المضمومة بعضها إلى بعض.

شروط القسم الأول: ومن أهمها ما يلي:

1/ أن تكون اللفظة مؤلفة من حروف متباعدة المخارج وعلة ذلك أنهم يرون أن الحروف(أصوات) تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، وأن هذه الألوان المتباينة حين تجمع تكون في المنظر أحسن، وعلى ذلك القياس كانت العلة في حسن تأليف اللفظة من الحروف المتباعدة، ومن أمثلة هذا الشرط إنكارهم لكلمة "هعخع" ذات الدلالة المعروفة عندهم بسبب تأليفها من حروف حلقية، فصعب نطقها بسبب تقارب حروفها.

2/ أن تكون اللفظة غير وحشية من غريب اللغة، من ذلك ما يروى عن أبي علقمة النحوي قوله: "مالكم تتكأكؤون علي تكأكؤوكم على ذي جنة؟ افرنقعوا عني؛ فإن كلمتي (تتكأكؤون) و(افرنقعوا) من غريب اللغة.

3/ أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح ومثال ذلك قول الشاعر:

شرطي الإنصاف إن قيل اشترط *** وصديقي من إذا صافى **قسط**

أراد الشاعر بـــ**"قسط"** عدل، وليس الأمر كذلك، وإنما يقال أقسط إذا عدل، وقسط إذا جار لقوله تعالى:﴿وأما القاسطون كانوا لجهنم حطبا﴾[5].

4/ ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره ومثال ذلك قول الشاعر:

قلت لقوم في **الكنيف** تروّحوا *** عشية بتنا عند ماوان رزح

ومعلوم أن **الكنيف** أصله الساتر، وقد استعمل للدلالة على المكان الذي تقضى فيه الحاجة ولذلك يكره ذكره هنا.

5/ أن تكون الكلمة معتدلة الحروف، فإذا زادت قبحتن كقول الشاعر:

إن الكريم بلا كرام منهم *** مثل القلوب بلا **سويداواتها**

فكلمة **سويداواتها** كثيرة الحروف.

شروط القسم الثاني: فمن أهمها تأكيد النقاد العرب القدامى على ضرورة تجنب تكرار الكلمات المتقاربة الحروف من قبل الناظم؛ لأن ذلك يعتبر منفر للسامع، وذلك كقول الشاعر:

وقبرُ حربٍ بمكان قفرٍ *** وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

مقاييس المعنى:

وتشتمل مقاييس المعنى عند النقاد العرب القدامى على الآتي:

1/ الصحة والخطأ:

حيث كانوا يشترطون أن يكون المعنى صحيحا لا خطأ فيه من ناحية واقع الحياة، أو واقع التاريخ، أو واقع اللغة، وقد أحصوا على الشعراء أخطاء معنوية وقعوا فيها بسبب جهلهم بالحقائق التي تحدثوا عنها، من ذلك:

أ. فمن الاخطاء القائمة على الجهل بالحقائق، قول أبي مواس يصف الأسد:

كأنما عينيه إذا نظرت *** بارزة الجفن عين مخنوق

- سورة الجن، الآية 15.[5]

فإن عين المخنوق تكون جاحظة، ولا يوصف الأسد بجحوظ العين بل بغؤورها.

ب. ومن الأخطاء المخالفة للتاريخ، قول زهير بن أبي سلمى:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم *** كأحمر عاد ثم تنتج فتفطم

لأن المشؤوم هو أحمر ثمود لا عاد

ت. ومن الطاء اللغوية التي وقع فيها بعض الشعراء نذكر قول البحتري:

تشق عليه الريح كل عشية *** جيوب الغمام بين بكر وأيّم

فالأيم هي من لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبا، لكن البحتري ظن أن الأيم هي من ليست بكرا.

والأغلب أن الخطأ في المعاني الشعرية، يعود إلى جهل الشاعر بالحقائق التي يوردها؛ ومن ثم كان واجبا عليه أن يكون متمكنا من الثقافة اللازمة حتى لا يقع في أي لون من الأخطاء المشار إليها آنفا.

2/ المعنى وأغراض الشعر:

يرى النقاد العرب القدامى أن التعبير الشعري الجميل هو الذي يراعي فيه الشاعر مناسبة المعنى للغرض الشعري المقصود. وقد نبه هؤلاء النقاد إلى ضرورة مراعاة معاني تلك الأغراض عند تناولها من قبل الشعراء، فجاءت توجيهاتهم كالآتي:

أ. المديح:

فقد رأوا أن المعاني المتعلقة بهذا الغرض، والتي يجب أن تكون موضع اهتمام الشعراء، هي الإشادة بالفضائل الإنسانية، لا الصفات الجسمية ولا الأمور العرضية. ومن هذا القبيل قول زهير بن أبي سلمى:

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله *** ولكنه قد يهلك المال نائله

فوصف الممدوح بالعفة لقلة إمعانه في اللذات وأنه لا ينفذ ماله فيها، وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال ميله إلى ذلك عن اللذات.

ب. الهجاء: وهو ضد المديح، وذلك يعني أن الهجاء ينبغي أن يكون بسبب انتفاء تلك الفضائل فيمن يتوجه إليه الشاعر بالهجاء.

ت. الرثاء: ليس بين هذا الغرض والمديح فرق سوى أن يذكر الشاعر في اللفظ ما يدل على أنه الميت، مثل: كان، أو قضى نحبه، أو تولى، أو ما أشبه ذلك من الألفاظ الدالة على الرحيل عن هذا العالم. ومن الشواهد الشعرية الجميلة على هذا الغرض، قول الشاعر:

أيتها النفس أجملي جزعا *** أن الذي تحذرين قـــــد وقعا

إن الذي جمع السماحـــــة *** والنجدة والباس واندى جمعا

الألمعي الـــــذي يظن بك *** الظن كأن قد رأى وقد سمعا

ث. الوصف: وهو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات، وأحسن الشعراء من أتى في شعره بأكثر المعاني التي يتركب منها الموصوف، ثم، ومن الشواهد الشعرية المعبرة عن هذا الغرض قول يزيد بن مالك الغامدي يصف فعل سنابك الخيل في الأرض:

يثرن بسهل الأرض مما يدنسه *** عجاجا وبالحرّان[6] نار الحباحب[7]

والمعنى أن ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة كالحباحب المضيئة في حالة طيرانها ليلا.

ج. الغزل: رأى النقاد العرب القدامى أن من أهم المعاني المتعلقة بهذا الغرض، أن تتحقق فيه معاني الصدق، وتتصف بالرقة وليس الخشونة، كما في قول الشاعر:

يـــود بـــأن يمسي سقيما لـــــــعلها *** إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

ويهتز للمعروف في طلب العلا *** لتحمد يوما عند ليلـــى شمائله

وهذا من أحسن ما قيل في الغزل، وذلك أن الشاعر قد أبان عن عظيم وجد، فجعل أيسر سبيل إلى أن يشفى من سقم الهوى يكون بالمراسلة، كما أبان عن إعظام منه شديد لهذه المحبوبة، حيث لم يرض لنفسه كونها على سجيتها الأولى حتى احتاج إلى أن يتكلف سجايا مكتسبة يتزين بها عندها وهذه غاية المحبة.

3/ المعنى والأخلاق:

منذ أن وجد الشعر، انقسم النقاد العرب وغير العرب إلى فريقين، وسيظلون منقسمين ما دام في الحياة خير وشر، وفضية ورذيلة، أما الفريق الأول فيرى أنّ الشعر ينبغي أن يراعي الأخلاق، وأن يتضمن من المعاني ما يتحقق به سمو الإنسان والحياة. وأما الفريق الثاني فيرى أصحابه أن المقياس الخلقي لا دخل له فيه في تقويم الشعر، وأن للشاعر الحق

كل الحق في أن يعبر عن أحاسيسه سواء أوافق الخلق أم خالفه، بل وذهب أصحاب هذا الرأي من النقاد إلى ما هو أبعد من ذلك حين رأوا أن الشعر لا يكون جميلا إلا إذا حاد عن الأخلاق، ولا يخفى ما في هذه الدعوى من مبالغة كبيرة، لأن عصور الأدب زاخرة بالشعر الخالد الذي تتعانق فيه الأساليب الجملية مع المعاني السامية.

- الحرّان: الأرض الصلبة.[6]

- الحباحب: دويبة صغيرة تضيء بالليل.[7]